قضية الفقر في أدب الرافعي

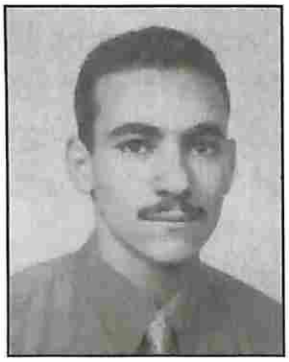

بقلم: وليد عبدالماجد كساب*
مصر

تناول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي قضية الفقر في أكثر من كتاب له، فكتب في كتابه الرائع «وحي القلم» عدة مقالات منها: سمو الفقر، حديث قطين، والطفولتان، وأحلام في الشارع، وأحلام في القصر، وقصة زواج وفلسفة المهر، وقد عالج أديبنا تلك القضية بشكل رمزي متميز وهو ما لايتأتى لأحد بسهولة.

أما كتابه «المساكين» فهو قطعة إنسانية رائعة صاغها لأسباب وضحها في قوله «هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مرقعة جديدة..فقد والله بليت أثواب هذا الفقر، وإنها لتنسدل على أركانه مزقا متهدلة يمشي بعضها في بعض، وإنه ليلفقها بخيوط من دمع، ويمسكها ببرقع من الأكباد، ويشد بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل، وأمل إلى خيبة، وخيبة إلى هم، وأقبح من الفقر أن لا يظهر الفقر كاسيا أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعاني التي يتمنى الحكماء لو أنها غابت في جماجم الموتى الأولين»(1).

وحسب قوله فقد كتب كتابه «المساكين» وكتب فيه عن الفقر وماهو من باب الفقر، لالمحوه، ولكن للصبر عليه، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه، ثم كتب عن الغنى وما إليه، لارغبة في إفساده على أهله، ولكن لإصلاح مايفهم منه غير

* باحث برابطة الجامعات الإسلامية - القاهرة.

أهله[٢]. إذن فالرافعي لم يتناول قضية الفقر ليفسد على الأغنياء حياتهم، فالغنى أمر مباح مشروع طالما أعطى الغني الفقراء من مال الله الذي آتاه.

وقد أدار الرافعي كلامه في هذا الكتاب على الوجه الذي يراه الشاعر في ضحك الطبيعة ورقتها دون الوجه الذي يعرفه الفيلسوف في عبوس المادة وجفائها، لأنه كما يقول: «يريد به النفس في مستقرها، وجاء به من مبرق الصبح لا من غياهب الليل، وأطلعه من أفق الإيمان لا من قرارة الشك، كما أراد به تفسير شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس»[٣].

لقد أخرج الرافعي كتابه هذا سنة١٩١٧م، وهو الكتاب الرابع مما ألف في المنثورة، وثاني ما ألف في أدب الإنشاء، يقول الأستاذ محمد سعيد العريان في تقديمه لهذا الكتاب «كان الرافعي يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيرا من المآسي الفاجعة يسأله أصحابها الرأي أو المعونة، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاما مكتوبا، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها، فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل»[٤].

ولقد حاز هذا الكتاب إعجاب القراء والمثقفين لما يتمتع به من أسلوب أخاذ بديع فضلا عما يحتويه من مواقف إنسانية رائعة تثير مكنونات النفس وتحرك سواكنها، حتى إن أحمد زكي باشا ليقول مخاطبا الرافعي «لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوته كما للألمان جوته».

مفهوم الفقر عند الرافعي:

يرى الرافعي أن الفقر والغنى قضيتان أزليتان منذ خلق الإنسان الأول، فقد كان الفقر عُريانا يوم

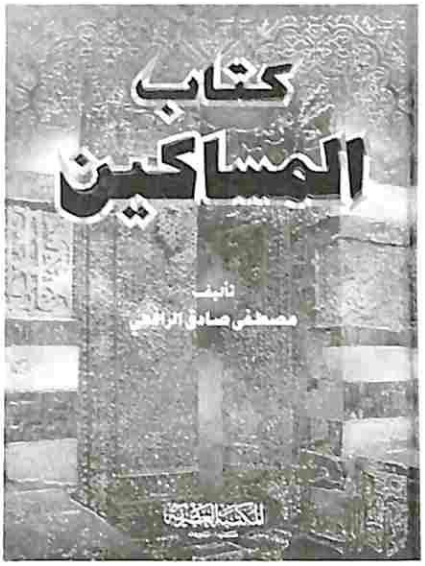

كان آدم في الأرض وليس عليه إلا ما خصف من ورق الجنة، وعاش دهرا تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب، ويمرح في ثياب بيضاء من أشعة القمرين، إذ لم يكن يعرفه أحد بعد ولا استطار به سماع السوء في الأحياء: بل كان عنصرا مجهولا في غيث الطبيعة، ولم يكن لهذا الإنسان يومئذ من المعاني الفقرية غير شعور طبيعي لازيغ في تأويله عن الطبيعة، وهو شعور المعدة القوية المعصوبة التي لا تتحمل الشعر والخيال وفنون الكذب العقلي، ولا تشعر إلا لتطلب، ولا تطلب إلا ما تجد، ومتى وجدت وانطفأ نهمها فليس إلا قوة الجسم وانبساط النفس وحمدا لله من كل ضرب من ضروب الجمال في الخليقة.

ويقول الرافعي: « إنه حين فتحت الصفحة الأولى من تاريخه الدموي الأساسي كان الحقد أول سطورها، ثم يأتي الفقر من بعده، يظهر ذلك في عداوة بني آدم ﴿ **إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم تقبل من الآخر** ﴾[٥]. فما الحقد إلا فقر من المحبة، ولا الحسد إلا فقر من الثقة، ولا الطمع إلا فقر من العقل[٦].

وفي ضوء ذلك فإن الفقر عند الرافعي فقران..

١- فقر مادي.

٢- فقر معنوي.

فالفقر المادي هو عوز الإنسان إلى المال الذي يسد به حاجاته الأساسية من مأكل ومشرب وغير ذلك مما يحتاج إليه الناس في معاشهم.

أما الفقر المعنوي وهو افتقار النفس إلى خلق من الأخلاق الكريمة كالرضا والزهد وغيرهما، فيرى الرافعي أنه أقدم من الفقر المادي، يقول: «ولقد كان الفقر قبل أن يكون المال، ثم وجد المال، فيما صنع أن يلقى أهله الأغنياء من هموم الدنيا وبأساء الحياة ما

لو استطاعوا لافتدوا من عذابه كل مافي أيديهم ولو أن لهم طلاع الأرض ذهبا»[٧].

أما الفقير فيما وصف الرافعي فهو شخص في الناس«ضائع حتى لايعرف له محلا، ومنفرد حتى لايجد بينهم لشخصه ظلا، وإذا هو بالسماء وقد التهت بأقدارها حتى كأنها في عينه جمرة من البرق الخاطف، وإذا الأرض قد ثارت بأهلها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، فإن أقبل على الناس فروا من أماكنهم كأنه زلزلة تمشي، وإن استصرخهم نفروا كأنه في صوته فزع الرعد القاصف»[٨].

الفقر عند الرافعي بين الجبر والاختيار:

يفرق الرافعي بين نوعين من الفقر، فيرى أن هناك فقرا إجباريا، لا يمكن لصاحبه أن يتخلص منه إلا بإذن الله عز وجل ومشيئته، وقد لا يجدي معه الأخذ بأسباب الغنى فكم من رجل « حط الله أوزاره وكتب عليه أن يكون فقيرا من المال وحب المال وذل المال، فخرج وليس في أفئدة الناس إلا الرأفة والحنان، وجاء وليس له من الناس حاسد أو عدو، وخلق ذا حدين نفسه الماضية لا يكتفه ذل أو هم إلا قطعها، وانطلق كالفرس العتيق ... ماذا يبغض الناس منه، وماذا يعادون؟! هو في ذلك البحر زورق قد سقط مجدافه، فليس له ما يضرب وما يسخر به، وإنما تدافعه رحمة الله حيث اندفع، والبحر لا يعادي الزورق الذي يجري فوقه، ولكن يعادي المجداف الذي يديره هنا وهنا .. رجل كأنه قطعة من الأبد، لا أمس له يتعقبه ولا غد له يترقبه، بل الحياة عنده يقظة طويلة والموت نوم أطول» [٩].

والفقير في هذا عند الرافعي هو ذلك « الكائن الضعيف الذي أحاط به الجهل حتى إنه ليجهل نفسه، وأينما يول وجهه أشاح عنه الناس بوجوههم فلووا رؤوسهم، وصعروا خدودهم وأمالوا أعناقهم .. وهو من تنكرت له الدنيا حتى أصبح فيها كأنه نوع شاذ من الخلق يقوى على كل شيء حتى الطبيعة، ولكنه يضعف عن شيء واحد وهو الغنى، فقضت عليه شرائع الاجتماع أن ينفق من حياته أضعاف ما يكسب لحياته ..»[١٠].

أما الفقر الاختياري فهو الذي قعد صاحبه عن الأخذ بأسباب الرزق، فتواكل على الآخرين، واعتمد على عطاياهم في التقوت والحصول على حاجاته الأساسية من مسكن وملبس وغير ذلك، وليس هذا بالفقر الذي يتعاطف معه الرافعي في كتبه وإنما تتجه كتاباته إلى الذين قعدت بهم حاجاتهم، فهم أولى بالرعاية من هؤلاء المتواكلين .

رمزية الرافعي في التعبير عن الفقر:

يتميز أدب الرافعي برمزيته التي تضفي على أسلوبه طلاوة ليس لها مثيل، فتارة يمثل لكل من الفقر والغنى بقطين أحدهما يرفل في النعيم والآخر يعيش في فقر مدقع، ويدور الحديث بين القطين في صورة ممتعة متندرة .

ويصف الرافعي القط السمين – الذي هو رمز الغنى – وصفا بديعا لا يقدر عليه إلا مقتدر، يقول : «خرج يتخلع تخلع الأسد في مشيته، وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها، وبسطته النعمة من أطرافه، وانقلبت في لحمه غلظا، وفي عصبه شدة، وفي شعره بريقا، وهو يموج في بدنه من قوة وعافية، ويكاد إهابه ينشق سمنا».

وعلى الجانب الآخر يصف القط الهزيل الذي هو رمز الفاقة وقد رآه : « نحيفا متقبضا، طاوي البطن، بارز الأضلاع، كأنما همت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر .. متيبسا كالميت في قبره غير أنه لم يمت .. أعطي الحياة غير أنه لم يحي..».

ويدور الحوار بين القطين – أو الرمزين – جذابا مؤثرا في النفس ومثيرا لشجونها وأحزانها يقول السمين للهزيل : « أو ليس الهر منا صورة مختزلة من الأسد، فمالك – ويحك – رجعت صورة مختزلة من الهر، أفلا يسقونك اللبن، ويطعمونك الشحمة، واللحمة، ويأتونك بالسمك، ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر، ويفتون لك الخبز في المرق، ويؤثرك

الطفل ببعض طعامه، وتدللك الفتاة على صدرها، وتمسحك المرأة بيديها .. وما لجلدك هذا مغبرا كأنك لا تلطعه بلعابك ولا تتعهده بتنظيف؟!» .

ويرد القط الهزيل عليه ردا يفيض بالحكمة والذكاء، إذ ينتقد تلك المعيشة المترفة التي يعيشها، لأن النعمة لا تأتيه وحدها وإنما تأتيه البلادة أيضا، وإن صلحت له الحياة فقد فسدت الغريزة، وإن ربح الشبع فقد افتقد اللذة التي يشعر بها من يتعب في تحصيلها.

ويستمر القط الهزيل «الحكيم» في شرح فلسفة الفقر والغنى بشكل فريد، حتى إن القط السمين (الأبله) يقول له : « تالله لقد أكسبك الفقر حكمة وحياة، وأراني بإزائك معدوما بزوال أسلافي منك وأراك بإزائي موجودا بوجود أسلافك منك ..»[١١] .

ثم نراه تارة أخرى ينام نومته الشعرية بعد أن رأى طفلين (أحمد وأمينة) يرقدان على عتبة أحد البنوك،ولنا هنا وقفة لا بد منها، فقد اختار أديبنا البنك ليرمز به إلى الغنى الفاحش والطغيان، كما يرمز به إلى الفروق الطبقية التي يعاني منها الناس في حياتهم، يقول : « وظهر لي بناء شيطان في ظلمة الليل من مرأى الغلامين - أسود كالحا، كأنه سجن أقفل على شيطان يمسكه إلى الصبح، ثم يفتح له لينطلق معمرا، أي مخربا، أو هو جسم جبار كفر بالله وبالإنسانية، ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه، فمسخه الله بناء، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعاني آثامه وكفره»[١٢].

ويمثل الرافعي للفقر والغنى بمعانيهما المتعددة بطفولتين متباينتين، فطفولة مترفة منعمة تتمثل في شخصية (عصمت) ابن الباشا الذي وصفه بأنه يكاد ينعصر لينا .. ويرف رفيفا في ظلال العز كأن لروحه من الرقة مثل ظل الشجرة حولها، وطفولة أخرى بائسة تظهر في شخصية (جعلص) - وانظر إلى الظلال التي يلقيها هذا الاسم على نفس القارئ- وكعادته يدير أديبنا حوارا طريفا بين الطفلين اللذين يمثلان اتجاهين متغايرين في الحياة البشرية .

ثم هو يتحدث عن شخصية حلمت أنها عاشت حال الفقر كما عاشت حال الغنى فليست الدنيا تدوم على حال، « فقد كان فلان ابن الأمير فلان يتنبل في نفسه بأنه مشتق ممن يضع القوانين لا ممن يخضع له، فكان تياها صلفا يشمخ على قومه بأنه أمير ابن أمير، ثم هو وقد مالت عليه الدنيا ففقد كل أمواله وأهين إهانة بالغة، وابتلي بالجنون، فساح في الأرض لا يستبين نهارها من ليلها، ثم رأى أنه أفاق من الإغماء فإذا هو قد استيقظ من نومه على فراشه الوثير»[١٣] .

ونراه يستلهم في كتابه « المساكين» معاني الفقر المختلفة من الشيخ علي الذي التقى به حين كان في زيارة أصهاره في بلدة «منية جناح» بدسوق، والشيخ علي كما وصفه الرافعي « رجل سدت في وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء، فكأنه في الأرض بطل خيالي يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة،ولكنه مع ذلك يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تغذوها مادة الأرض ولا مادة الجسم، فهي تزدري كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف، وكل ما وردت عليه الغبطة من بسطة في الجسم أو سعة في المال أو فضل في المنزلة، وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف .. فهو من أجهل الناس في الدنيا بالدنيا ... وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق[١٤].

وعلى النحو الذي رأينا فقد أجاد الرافعي في تعبيره الرمزي عن الفقر بأساليب مختلفة، فنراه يرمز

إليه بطفلين تارة، وبقطين تارة أخرى، ويجعلهما مدار كلامه فيسبح بالنفس في أرجاء الكون الفسيح يستلهم من الفقر معانيه المختلفة، ويبحث في مظاهره التي تلقي بظلالها على النفس والمجتمع.

سمو الفقر :

ويتحدث الرافعي عن الفقر السامي الذي يعتلي فوق المادة، فلا يعبأ بالحياة ولا يكترث بها، وإن هذا السمو ليبدو واضحا جليا في أخلاق النبي ﷺ . فبالرغم من الفقر والفاقة التي عاشها إلا أنه كان بطبيعته فوق الاستغناء، فهو فقير لا يجوز أن يوصف بالفقر، ولا تناله المعاني النفسية التي تعلو بعرض من الدنيا وتنزل بعرض، فما كانت به خلة تحدث هدما في الحياة فيرممها المال، ولا كان يتحرك في سعي ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا .. ولا استقر في قلبه العظيم ما يجعل للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم، فإن المعنى الحي لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة في صورة تكبر على قدر من السعة والغنى، والمعنى الحي للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلة منزوية في صورة تصغر على قدر من الضيق والعسرة.

وعلى عكس ما يرى أكثر الكتاب من زهد النبي ﷺ فإن أديبنا الرافعي يرفض ذلك، حيث يرى أن فقره من نوع آخر، يقول : « ولا يسمى فقره ﷺ زهدا كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ، ولا يحققون أصوله النفسية . وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواح مظلمة تريهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء، فتراءت مجملة لا تفصيل لها، مفرغة لا تبين فيها، وما بها من ذلك شيء غير أنها تتراءى في لقية من البصر لا تغمر حقا ... وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك، وتنتر عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخرية ومثلة، وفي رأيي تشويه للجسم بروحه . وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها، فليس يعلم إلا الله وحده : أنذاك تفسيره الإنسانية الزاهد بالنور، أم هو تفسير بالتراب .. ولقد كان ﷺ يملك المال ويجده، وكان أجود به من الريح المرسلة، ولكنه لا يدعه يتناسل عنده [(١٥)] . ■

الهوامش:

(١) مصطفى صادق الرافعي ، المساكين ، ص١٩ ، مكتبة الإيمان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ -١٩٩٧م ، تحقيق عبدالله المنشاوي .
(٢) نفس المرجع ، ص٢٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٥ .
(٥) المائدة ، الآية ٢٧ .
(٦) المساكين ، ص٢١ .
(٧) المساكين ، ص٢١ .
(٨) نفس المرجع، ص٥٣ .
(٩) المساكين ، ص٣٨ .
(١٠) المساكين ، ص ٥١ .
(١١) مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم ، ٤٢/١ ، ط الهيئة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٣م .
(١٢) نفس المرجع ، ٦٧/١ .
(١٣) وحي القلم ، ٧٦/١ .
(١٤) المساكين ، ص٣٤ .
(١٥) وحي القلم ، ٤٣/٢ .

ومن عجب يكون المال تاجا ... وحب المال أشبه بالقيود
فيا أسفا على الفقراء أمسوا ... كمثل العود جفف للوقود
دموعهم دنانير ولكن ... تعامى الناس عن هذي النقود
أليس من التغابن وهو ظلم؟ ... جزاء السعي يعطى للعقود

مصطفى صادق الرافعي